في بلاد الاندلس

الرحلة الثانية [1]

فصدت عاصمة الاسبان هـذه المرة عن طريق غير الطريق التي اتّبعتها السنة الماضية . فبعد ان زرنا نابولي قامت بنا الباخرة الى جنوى ، فوجدناها اكثر جمالاً ونظافة من نابولي ، وهي تمتاز عنها بمحاسن شواطئهـا ، وكثرة متنزهاتها ، وجمال حدائقها الغنآء ، وأهمهـا حديقة المركيز دي بلاقتشيني وفيها كل اصناف الزهور والاشجار الموجودة في العالم ، وكثير من التماثيل البديعة والرموز التاريخية . وقد شاهدنا فيهـا اشجاراً كبيرة من ارز لبنان الجميل . وهذه هي المرة الثانية التي اشاهد فيها ارز لبنان العزيز بعد ان شاهدته للمرة الأولى في حديقـة القصر الملكي في بلدة الجرانخا في اسبانيـا كما سيجيء الكلام عن ذلك . وانهُ ليعزّ عليّ أنه لم يتيسر لي حتى الآن مشاهدة اشجارنا التاريخية نفسها في أعلى تلك القمم الجميلة التي يفتخر لبنان بمحاسنها . وبالقرب من هذه الحديقة التي يقولون عنها انهـا اكبر وأجمل حديقة في اوربا يوجد قصر جميل وروضة غنآء للشاعر الكبير « ادمون روستان » ولكنهما أقل جمالاً وعظمة من قصره الشهير وغياضهِ ورياضهِ الفسيحة الكائنة في مسقط رأسهِ « كامبو » التي أتينا على ذكرها في مقالتنا السابقة لدى زيارتنا لهذا النابغة في الصيف الماضي

---

(١) راجع « الزهور » السنة الثانية ص ٢٩٩

ومما تفاخر بهِ جنوى ايضاً جميع مدن اوربا مقبرتها الشهيرة التي تستحق الزيارة لكونها آية في الترتيب والعظمة والجلال وفيها تماثيل وصور بغاية الاتقان والجمال . وهذه المقبرة هي لأهل البلد من جميع الطوائف والملل . ولكل فئة ترتيب خاص بغاية الاتقان والكمال . ومما يجعل لجنوى أهمية كبرى حسن موقعها الجغرافي وجمال شواطئها البحرية التي خصتها بهِ الطبيعة . وهي بلدة عامرة آهلة بالسكان كثيرة المصانع والمعامل أخص منها بالذكر معمل «أنسلدو» الشهير بصنع السفن الحربية

والطريق بين نابولي وجنوى من أجمل الطرق التي يقطعها الانسان في البحار لأن الجزر الآهلة بالسكان ، والجبال الكثيرة الأحراج والغياض تتخللها عن قرب على طول المسافة تقريباً

وبعد ان قضينا نحو ٣٦ ساعة في جنوى زرنا في اثنائها بالاوتوموبيل شواطئها الجميلة التي يقصدها السائحون والسائحات من كل جهات العالم للتمتع بجمال مواقعها الطبيعية وطيب هوائها وصفاء سمائها ، قامت بنا الباخرة الى مدينة الجزائر (Alger) ، حيث شاهدنا بمزيد الاعجاب والسرور آثار العمران الحديث وآيات المدنية الفرنسية التي جعلت هذه المدينة الافريقية من أجمل المدن الحديثة . وهي تشبه كثيراً بيروت بموقعها الطبيعي وشكل بناء منازلها ومبانيها على علوّ متتابع . ولكن أنّى لبيروت تلك الشوارع الجميلة التي تسير فيها العربات والسيّارات دون ان يشعر الانسان بأقل ارتجاج او انزعاج . ولكل منزل في هذه المدينة تقريباً حديقة لطيفة تحيط بهِ وتحتوي على أجمل الازهار وأحسن

الاشجار . اما الفنادق الفاخرة التي فيها ، فهي ، وان تكن أقل عظمةً وغنىً من لوكندات شبرد وسافواي وهليوبوليس في مصر ، اكثر جمالاً ورونقاً لحسن مواقعها العالية التي تطل على أحسن المناظر برًّا وبحراً ولاتساع الحدائق النضرة التي تحيط بها وتساعد كثيراً على انشراح الزائرين الذين يقضون بين اشجارها الكثيفة وأزاهرها الفائحة العبير أطيب الأوقات وألذّ الساعات

وبعد ان تمتعنا بمحاسن ما في هذه المدينة من آثار المدنية والعمران التي قامت بفضل واجتهاد الامة الفرنساوية قصدت بنا الباخرة رأساً الى جبل طارق ، ذلك المضيق المنيع الذي لا يعرف اهميته ومناعة تحصينه الاَّ مَن يُسعِدُهُ الحظ بزيارته . وقد اتفق اننا وصلنا الى جبل طارق في آن واحد تقريباً مع الباخرة كرباثيا (Carpathia) وهي التي أنقذت بعض ركاب الباخرة تيتانيك في تلك الفاجعة المؤلمة المعروفة . وعند تقابلنا حيّتها باخرتنا بانغام الموسيقى . وفي سفح ذلك الجبل يوجد بلدة آهلة بالسكان يقطنها اكثر من ٢٥ الف نفس . ولولا ممانعة الحكومة الانكليزية وعدم تصريحها لكل اجنبي بالاقامة اكثر من اسبوع واحد فقط في تلك البلدة ، لكان عدد سكانها ازداد كثيراً . اما البلدة فهي بغاية النظافة والترتيب . والعادات الانكليزية متأصلة فيها تماماً بحيث ان الانسان يحسب نفسه في انكلترا . ومعظم الدكاكين والمخازن يقفل يوم الأحد ، وبعضها يقفل يومي الجمعة والسبت ايضاً . والعربات لا تقدر ان تسير الاَّ خطوة خطوة امام الكنائس ، خصوصاً

عند اقامة الصلاة . والرقص ممنوع تماماً في الملاهي والقهوات ، بحيث انه لايوجد في البلدة الاّ محلات للسينماتوغراف فقط . اما القلاع والطوابي والاستحكامات التي تحيط بذلك الجبل ، وخصوصاً المدافع العديدة المحكمة الوضع من داخل تلك الصخور الهائلة ، فحدث عنها ولا حرج . ولا يدلُّ على وجود تلك المدافع في داخل الجبـل الاّ الثقوب العديدة المحفورة في تلك الصخور وأغلب تلك الثقوب مغطى ببعض الأشجار والأزهار ، ولكن عند ما تعكس الشمس أشعتها عليها في بعض ساعات النهار يتلألأ فولاذ تلك المدافع من فوهات تلك الخروق ومن تحت ظلال الاشجار والأزهار . وهناك مرقاة (ascenseur) حربية تصل بين البلد وأعلى قمة ذلك الجبل وتلك الحصون المنيعة لسهولة التواصل وسرعة مناولة الاشياء عند لزومهـا . وبعد ان زرنا ما أمكننا زيارته من جبل طارق ، وتمتعنا بمحاسن حديقتها الغناء التي تعزف فيها الموسيقى العسكرية كل يوم مساءً ، ركبنا باخرة صغيرة أوصلتنا الى « الجزيرة البيضاء » الشهيرة بمؤتمرها الدولي المغربي الاخير ؛ وهي أول الحدود الاسبانية ، بعد ان تنازلت اسبانيا لانكلترا عن حقوقها في جبل طارق سنة ١٨٨٢ . ولهذا الحادث التاريخي تذكارٌ في منتصف بلدة جبل طارق ، وهو عبارة عن بابين كبيرين بشكل قنطرتين ، يمثل أحدهما الحكم الاسباني القديم ، وعليه الرموز الملكية الاسبانية ، ويمثل الثاني الحكم الانكليزي مع رموزه وشعاره المعروف « فليخسأ من يسيء الظن (Honni soit qui mal y pense)

ولم تطل مدة اقامتنا في الجزيرة لأنها بلدة صغيرة ليس فيهـا من

الملاهي والآثار المهمة ما يستوقف المسافر، لا سيما اننا كنا في شوق عظيم الى مشاهدة الانداس الجميلة التي يتحدث بجمالها الركبان، ويتوق للتمتع بمحاسن آثارها العربية كل شرقي

والأندلس أجمل وأخصب جهات اسبانيا، واكثرها آثاراً وأجلّها تذكاراً، وهي بلاد كثيرة السهول والروابي، قليلة الصخور والجبال. والسير في أرجائها الفسيحة يشرح الخاطر ويسرّ النواظر، لكثرة مايشاهد الانسان من المروج الخضراء، وجنائن الفاكهة المتنوّعة الأصناف، وسهول الزيتون المترامية الأطراف، وهي تشبه كثيراً بتنسيق مزروعاتها وألوان خضرتها سهول البقاع في سوريا

ولأهل الأندلس عادات خاصة بهم، ومزايا وأخلاق قومية يمتازون بها عن سواهم. فرجالهم من أشد الرجال، واكثرهم نشاطاً واقداماً؛ ولذلك يكثر بينهم عدد مصارعي الثيران الذين يمتازون على أقرانهم في ساحة المصارعة. أما نساؤهم فمن أجمل نساء اسبانيا، وللجمال الأندلسي شهرة عظيمة في العالم. فهنّ على الغالب طوال القامة، يقرب لونهنّ الى السمرة اكثر منهُ الى البياض. ومع ذلك فقد شاهدت منهنّ من يُخجل بياض وجوههنّ نورَ الصباح. وللنساء ولعٌ شديد في حب التزين بالزهور ورصفها على الصدور والرؤوس. وللفلّ الأندلسي الجميل الحظّ الأكبر في ذلك مما جعاني أتذكر عفواً حين مشاهدة بعضهنّ قول «خليلنا» العزيز شاعر بعلبك

زانت الرأس بفلٍّ هو بالرأس تحلّى

ما رأت قبلكِ عيني　　وردة تحمل فُلاّ

أما تلك العيون التي ان رَمت قتلت ، فبسوادهنّ تفاخر الاندلسيات كلّ حسان العالم ، وقد خطر على بالي بعض أبيات للمرحوم الشيخ خليل اليازجي بعد ان كنت قد هجرت ونسيت الشعر وأهله . أما الابيات فهي

بيض الصوارم تفدي الأعين السودا　　فتلك لا تبتغي للضرب تجريدا
وأسمرُ الرمح يفدي العطفَ منثنياً　　فذاك لا يبتغي للطعن تسديدا

وأما ذلك الفمُ الصغير الجميل الذي يفترُّ عن درر ، ويبسمُ عن أقحوان ، فقد نطقت جوارحي عند رؤيته ، قبل أن ينطق فمي بقول بعضهم

وفم كصدري ضيّق لكنّ ذا　　يحوي اللهيب وذاك يحوي الكوثرا

وأما تلك الأيدي والزنود الجميلة فلا أجد في وصفها قولاً أوفق وأتم مما قال الشاعر :

وزندين لو لم يمسكا بدماً لج　　لسالا من الأكمام سيل الجداول

والاندلسيون أهل كرم وأنس . وقد اقتبسوا من العرب الانفة والمروءة واكرام الغرباء . ولم تزل الى الآن مآكلهم تشبه كثيراً المآكل العربية ، ودورهم حافظة أيضاً شكلها الشرقي الجميل القديم فكل دار لا تخلو من فسحتين عند مدخل الباب الكبير ، تفصل بينهما قنطرة شرقية الشكل ، وفي وسط الساحة الثانية بركة مياه ، والأزهار مرصوفة من حولها ، مما يجعل للبيت رونقاً جميلاً ويزيد أهله استعداداً حسناً للانشراح وتعاطي كؤوس الراح

والنساء مثل رجالهنّ أهل طرب وأنس . ويمتزن عن باقي النساء

بسلامة القلب وشدّة التأثير. ولكن اذا علق قلبهنّ بأحد فمن الصعب أن يخلص من أيديهنّ لشدة مفعول الغرام والانتقام في قلوبهنّ السليمة

ومن العادات الخاصة بأهل الاندلس ، والمنقولة طبعاً عن العرب ، ان الشاب لا يقدر أن يقابل خطيبته ولا يكلمها مباشرة الا بعد مرور بضعة أشهر على عقد الخطبة ويجب أن يتردّد في تلك الاثناء الى منزل والدها دون أن يصعد الى الدور الأعلى حيث تكون خطيبته فيضعون له كرسياً في أول المدخل وعروستهُ تكلمهُ قليلاً من نافذة البيت

وفي أيام الآحاد والاعياد — وما اكثر الأعياد في هذه البلاد — عند ذهاب الخطيبة الى الكنيسة يجب على الخاطب أن يتتبع خطواتها ، وعليها أن تحاول الإعراض عنهُ وتتظاهر بعدم الرغبة فيهِ . وفي أثناء الخطبة يجب على الفتاة أن تظهر اكثر من ألف مرة عدم رغبتها في الاقتران ، ومع ذلك عند مجيء خطيبها في الساعة المحددة الى البيت يجب عليها ان تطل من الشباك وتكلمه

وسنجيء في مقالٍ آتٍ على ذكر ما نشاهده من احوال الاندلس

(مدريد) نجيب زلزل

من ادارة « الزهور »

هذا هو الجزء الاخير الذي يصدر من « الزهور » قبل عطلة الصيف السنوية . وموعدنا والقرّاء الادباء أول اكتوبر (تشرين الاول) القادم